

تفسير ابن كثير

كهيущ

سورة مريم: وهي مكية . وقد روی محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة وأحمد

بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الجبعة من مكة أن جعفر بن أبي

طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه . قد اختلف المفسرون

في الحروف المقطعة التي في أوائل سور ف منهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه فردوها

علمها إلى الله ولم يفسرها حكاه القرطبي في تفسره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى

وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والريبع بن خيثم

واختاره أبو حاتم بن حبانو منهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن

بن زيد بن أسلم إنما هي أسماء سور . قال العالمة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

في تفسيره وعليه إطباقي الأكثرين نقل عن سيبويه أنه نص عليه ويعتمد لهذا بما ورد في

الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح

يوم الجمعة "الم" السجدة و "هل أتى على الإنسان" وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح

عن مجاهد أنه قال: الم وحم والمص وصفواتح افتتح الله بها القرآن وكذا قال غيره عن

مجاهد وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبي نجيح

عنه أنه قال الم اسم من أسماء القرآن وهكذا وقال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع

إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السور فإن كل سورة يطلق

عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون المص اسمًا للقرآن كله لأن المبادر إلى فهم سامع من

يقول قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم.وقيل

هي اسم من أسماء الله تعالى فقال عنها في فواتح سور من أسماء الله تعالى وكذلك قال

سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير وقال شعبة عن السدي بلغني أن

ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله الأعظم.وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث

شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي عن شعبة قال سألت السدي عن حم وطس

والله فقال ابن عباس هي اسم الله الأعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى

حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن إسماعيل السدي عن مرة الهمذاني قال: قال عبد الله

فذكر نحوه حكي مثله عن علي وابن عباس وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو

قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث

ابن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال الم قسم.وروينا أيضاً من حديث شريك بن

عبد الله بن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس: الم قال أنا الله أعلم وكذا

قال سعيد بن جبیر وقال السدي عن أبي مالک وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة

الهمذاني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلی الله عليه وسلم الم قال أما

الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى قال وأبو جعفر الرازي عن

الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى الم قال هذه الأحرف الثلاثة من التسعة

والعشرين حرف دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه

وليس منها حرف إلا وهو من آلةه وبالآله ليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام

وآجالهم.قال عيسى ابن مريم عليه السلام وعجب: فقال أعجب أنهم يظنون بأسمائه

ويعيشون في رزقه فكيف يكفرون به فالآلف مفتاح الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم

مفتاح اسمه مجید فالآلف آلة الله واللام لطف الله والميم مجد الله والألف سنة واللام

ثلاثون سنة والميم أربعون سنة.هذا لفظ ابن أبي حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه

كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن

الجمع ممكن فهي أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتح بها سوراً فكل حرف منها دل

على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتح سورة كثيرة بتحميمه وتسبيحه وتعظيمه

قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى

مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على

معاني كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين قوله تعالى "إنا وجدنا آباءنا على أمة"

وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله قوله تعالى "إن إبراهيم كان أمة قانتا الله حنيفاً ولم

يكون من المشركين" وتطلق ويراد بها الجماعة قوله تعالى "وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ

يُسْقُونَ" وقوله تعالى "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا" وتطلق ويراد بها الحين من الدهر

قوله تعالى "وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةً" أي بعد حين على أصح القولين قال

فكذلك هذا. هذا حاصل كلامه موجهاً ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فإن أبا العالية

زعم أن الحرف دل على هذا وعلى هذا معاً ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ

المشتركة في الاصطلاح إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق

الكلام فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم ثم إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف والمسألة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به وما أنسدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر: قلنا قفي لنا فقالت قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف تعني وقفته وقال الآخر: ما للظليم عال كيف لا ينقد عنه جلده إذا يقال ابن جرير كأنه أراد أن يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر: بالخير خيرات وان شرا فا ولا أريد الشر إلا أن تيقول وإن شرا فشرا ولا أريد الشر إلا أن تشاء فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتها ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم. قال القرطبي وفي الحديث "من أعن على قتل مسلم بشرط كلمة" الحديث قال سفيان هو أن يقول في اقتلاه "وقال خصيف عن مجاهد أنه قال فواتح سور كلها" ق وص وحم

وطسم والر" وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هي حروف من حروف

المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية

والعشرين حرفا كما يقول القائل ابني يكتب في - ا ب ت ث - أ ي في حروف المعجم

الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير. قلت مجموع الحروف

المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهي - ال م ص ر ك ه ي

ع ط س ح ق ن- يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عددا

والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف. قال الزمخشري وهذه

الحروف الأربع عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة

ومن الرخوة والشديدة ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعملة والمنخفضة ومن حروف

القلقاة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شئ حكمته وهذه الأجناس

المعدودة مكتوبة بالذكورة منها وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله وهنها

هنها لخص بعضهم في هذا المقام كلاما فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه

وتعالى عبنا ولا سدى ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تبعد لا معنى له بالكلمة

فقد أخطأ خطأ كبيرا فتعين أن لها معنى في نفس الأمر فإن صح لنا فيها عن المعصوم
شيء قلنا به وإنما وقفنا حيث وقفنا وقلنا "آمنا به كل من عند ربنا" ولم يجمع العلماء فيها
على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإنما فالوقف
حتى يتبيّن هذا المقام.المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل
السور ما هي مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها فقال بعضهم إنما ذكرت ليعرف بها
أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه
وفيما ذكرت فيه البسمة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدأ بها لتفتح لاستماعها أسماع
المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه
حكاه ابن جرير أيضا وهو ضعيف أيضا لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا
يكون في بعضها بل غالباً ليس كذلك ولو كان كذلك أيضاً لأنني الابتداء بها في أوائل
الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة
والآل عمران مدنیتان ليستا خطاباً للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.وقال آخرون
بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن

الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحکاه لي عن ابن تيمية. قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله - ص ن ق - وحرفين مثل "حم" وثلاثة مثل "الم" وأربعة مثل "المر" و"المص" وخمسة مثل "كھیعص" - وـ "ھمھسق" لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك "قلت" ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى "الله ذلك الكتاب لا ريب فيه" "الله الم لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه" "المص كتاب أنزل إليك

فلا يكن في صدرك حرج منه" "الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور

بإذن ربهم" "الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين" "حم تنزيل من الرحمن

الرحيم" "حم عسق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك اللهم العزيز الحكيم" وغير ذلك

من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم وأما من زعم

أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتنة والملامح فقد

ادعى ما ليس له وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل

على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو ما رواه محمد بن إسحق بن يسار

صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن

رباب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

يتلو فاتحة سورة البقرة "الم ذلك الكتاب لا ريب فيه" فأتى أخاه بن أخطب في رجال من

اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه "الم ذلك

الكتاب لا ريب فيه" فقال أنت سمعته قال نعم قال فمشي حي بن أخطب في أولئك

النفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما

أنزل الله عليك "الم ذلك الكتاب"؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بلى" فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال "نعم" قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين النبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غير كفقام حي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم ألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين النبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره فقال "نعم" قال ما ذاك؟ قال "الucus" قال هذا أثقل وأطول ألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون وهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال "نعم" قال ما ذاك؟ قال "الر" قال هذا أثقل وأطول ألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان وهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال "نعم" قال ماذا قال "المر" قال هذه أثقل وأطول ألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان وهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً ثم قال قوموا عنه ثم قال أبو ياسر لأخيه حي بن أخطب ولمن معه من الأخبار ما يدرىكم لعله قد جمع هذا محمد

كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون
ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين؟ فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هؤلاء الآيات
نزلت فيهم "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُم الكتاب وأخر
متشابهات" فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو من لا يحتاج بما انفرد
به ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف
الأربعة عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرر فأعظم وأعظم
والله أعلم.